ثروت عكاشة..

فرعون الإنقاذ

الغوص فى عقول ووجدانات أولى العزم من البشر رحلة مستحيلة.. فالاقتراب من صفوة الصفوة أمر محفوف بكثير من المخاطر.. فلهم شخصيات مترامية الأطراف من الصعب الإحاطة بها.. ولهم عقول رائعة مليئة بالدروب والمتاهات والأفكار.. ولهم قلوب كبيرة تختصر العالم فى بعض نبضها.. ولهم نفوس سمحة متسامحة متسامية.. ولهم غدد خفية تفرز الأفكار النبيلة التى تسعى لتغيير ملامح العالم ليصبح أبهى وأجمل.. وبرغم كل هذه الصعوبات إلا أن الإغراءات أكبر.. فنحن أمام أولى العزم من البشر مثل الفراشات التى تنجذب إلى الأضواء مبهورة برغم ما يحدق بها من مخاطر.

ويحتل الدكتور ثروت عكاشة مكانة رفيعة فى قائمة أولى العزم من البشر.. حيث امتلك قدرة فائقة على «ترويض المتناقضات» ليصنع منها النموذج الأمثل للتكامل.. حيث يمتلك الدكتور ثروت عكاشة.. صرامة القائد ورقة الشاعر.. حيادية المؤرخ وانحياز العاشق.. شره العالم وزهد الراهب.. موسوعية المفكر ودقة الجراح.. الغضب النبيل للثائر.. والحلم الجميل للدبلوماسى إنه الثائر الفنان والمحارب عاشق الجمال.. الذى يرى فى الثقافة أسلوب حياة وعملا استراتيجيا.. ويرى فى المثقف عالما وقائدا معا.. ويؤمن بإنسانية الفن بلا تمييز.. إنه نبع متجدد العطاء.. طموحه بلا سقف.. يسعى إلى تحقيق الكمال فى الأداء.. ويمتلك الحرص على عدم وقوع الخطأ.. لايقبل أبدا الحد الأدنى.. يمتلك بصيرة حادة ونظرة فاحصة لمن حوله؛ مكنته من كشف قدرات معاونيه وتوظيف كل إنسان فيما يفيد.

من البداية

وقبل أن نتجول فى عوالم الدكتور عكاشـــة وإنجازه الأبهى فى إنقاذ آثار النوبة نبدأ الرحلة من بدايتها إنه ثروت محمد فهمى عكاشة المولود فى القاهرة فى ١٨ فبراير ١٩٢١م.. لأســرة عســكرية، فالأب والجد من ضباط الجيش.. وقد أدركته حرفة القراءة فى ســن مبكرة.. فكون مكتبة حافلــة من مصروفه الشــخصى.. توقف كثيرا أمام كتــاب على هامش الســيرة للدكتور طه حســين.. وظل طوال الوقت مفتونا بشخص وسيرة عمر بن الخطاب.. وبرغم عسكرية الأسرة إلا أن الوالد دفع الابن لدراسة الحقوق.. ولكنه لم يحتمل أكثر من ســتة أشــهر حيث حملته جيناته العســكرية إلى الكلية الحربية.. ليتخرج فيهــا فى عام ١٩٣٩م بترتيب الخامس على ١٢٠ طالبا يمثلون كل دفعته.. والتحق بوحدات الفرســان فى مرسى مطروح ليتعرف إلى الملازم محمود وجيه خليل وتجمع بينهما روح الثــورة فينضم إلى مجموعــة «رجال الفداء» التى كونها خليل والتى كانت بروفة شديدة الجدية لتنظيم الضباط الأحرار الذى كونه جمال عبد الناصر، حيث كان ثروت عكاشة واحدا من أبرز قادة الضباط الأحرار.. ولأنه قد صنع من نفسه بوتقة جمعت مابين العسكرى والمفكر.. فقد بدأ رحلته مع التأليف فى مرحلة مبكرة جدا من حياته حيث ترجم فى عام ١٩٤٢م كتاب «الحرب الميكانيكيــة» للجنرال فولر.. ووصلت إصداراته قبل الثورة إلى أربعة كتب.. وكان قد التحق بكلية أركان الحرب فى عام ١٩٤٥م ليتعــرف إلى جمال عبد الناصــر وعبد الحكيم عأمر، وينضم إلى تنظيم الضباط الأحرار.. وطوال الوقت لم تنسه أحلام الثورة نصفه المفكر

والباحث، ففاز بجائزة فاروق الأول العسكرية والتى تمنح للدراسات العسكرية المتميزة.. وبعد نجاح ثورة يوليو فى الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢م.. ضرب ثروت عكاشة المثل فى الإيثار وإنكاز الذات، حيث تنازل عن عضوية مجلس قيادة الثورة لصالح حسين الشافعى عن سلاح الفرسان.. وبعد الثورة بأشهر قليلة تولى رئاسة تحرير مجلة التحرير بعد صدور ثلاثة أعداد منها، وسرعان ماقدم استقالته لاختلاف الرؤى مع بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة.. ليتم تعيينه ملحقا عسكريا فى سويسرا ومنها إلى باريس ليظل ملحقا عسكريا بها من ١٩٥٣م – ١٩٥٦م حيث تركها بعد اشتراك فرنسا فى مؤامرة العدوان الثلاثى على مصر عام١٩٥٦م، وقطع العلاقات الدبلوماسية ليتم تنصيبه سفيرا لمصر فى روما عام ١٩٥٧م.. وفاجأه الرئيس عبد الناصر بتعيينه وزيرا للثقافة عام ١٩٥٨م وبرغم محاولاته الجادة للاعتذار عن هذا التكليف.. إلا أن عبد الناصر صمم على إختياره وطلب منه أن يساهم بجدية فى صياغة الوجدان المصرى.. وذلك لأن رؤية عبد الناصر كانت تؤكد على أن ازدهار الثقافة تسبق أو تعادل التصنيع الثقيل.

وبرغم مسئولياته الجسيمة إلا أنه لم ينس أبدا البحث والدراسة فتخرج فى كلية أركان الحرب عام ١٩٤٨م ثم حصل على دبلوم الصحافة من جامعة فؤاد الأول «القاهرة» عام ١٩٥١م.. وتوج مشواره الدراسى بالحصول على الدكتوراه فى الآداب من جامعة السوربون عام ١٩٦٠.. وكانت رسالته للدكتوراه عن المؤرخ ابن قتيبة الدينورى.. وظل طوال الخمسينيات يوقع كتبه باسم «ثروت محمود».

مشروع متكامل

وبعد أن قبل تكليف الرئيس عبد الناصر كأول وزير للثقافة فى مصر – فقبله كانت تسمى وزارة الثقافة والإرشاد القومى – وذلك فى نوفمبر ١٩٥٨م.. تفجرت كل ينابيع الفكر والإبداع فى عقل ووجدان ثروت عكاشة ليضع ملامح الثورة الثقافية الشاملة، التى تمتلك كل آليات المشروع الثقافى المتكامل.. حيث توالت أفكار ومشروعات ثروت عكاشة التى وصلت إلى أكثر من خمسين مشروعا ثقافيا حددت كل ملامح البنية التحتية.. وأنشأت الأعمدة الرئيسية للثقافة المصرية فى العصر الحديث.. فأنشأ أكاديمية الفنون وهيئة المسرح وفرق الفنون الشعبية والموسيقى العربية والسيرك القومى، وأوركسترا القاهرة السيمفونى وبيوت وقصور الثقافة ومؤسسة دعم السينما ودار الكتب وإدارة الرقابة على المصنفات الفنية.. ومشروع الصوت والضوء للمواقع الأثرية وأعاد تبعية هيئة الآثار من السياحة إلى الثقافة، وفتح آفاق البعثات الفنية إلى كل دول العالم، وذلك لإعداد الكوادر التى تقود كل هذه الهيئات والمؤسسات.. وبرغم كل هذه الإنجازات فقد ترك الوزارة فى سبتمبر ١٩٦٢م بعد تصادم رؤاه فى التركيز على «الكيف» مع رؤى الباحثين عن «الكم» وترك بصماته ومشروعاته فى الثقافة والتثقيف، حيث جعل الثقافة حقا من حقوق كل مصرى، بل جعل الثقافة عند أطراف أصابع المصريين من خلال ترجمة الألف كتاب مع إنشاء أربع سلاسل مهمة «تراث الإنسانية – المكتبة الثقافية – أعلام العرب – مسرحيات عالمية».. ترك الوزارة ليرأس المجلس الأعلى للفنون والآداب إضافة إلى رئاسته للبنك الأهلى، حيث

صار على خطى طلعت حرب فى الجمع مابين الاقتصاد والثقافة، فعمل على اقتناء العديد من اللوحات التشكيلية ذات المستوى الرفيع.. وبرغم ازدهار سياسة الكم الثقافى طوال أربع سنوات إلا أن الرئيس عبد الناصر وجد أن رؤيته للثقافة ودورها فى المجتمع لاتتحقق إلا بوجود الدكتور ثروت عكاشة على رأس وزارة الثقافة فأعاده وزيرا للثقافة فى سبتمبر ١٩٦٦م ليواصل مسيرته العملاقة مع الإنجاز الثقافى على مدى أربع سنوات أخرى انتهت فى نوفمبر ١٩٧٠م.

وبرغم كل هذه المسئوليات الرسمية إلا أن ثروت عكاشة لم ينس أبدا أنه دارس لايجد متعته إلا فى البحث والدرس وعشق الفنون.. فجعل من نفسه نحلة عملاقة راحت ترشف كل أنواع الرحيق فى الثقافة والفنون؛ لتفرز فى النهاية فكرا راقيا وإبداعا رائعا.. وقد وصلت كتبه إلى أكثر من ٥٦ كتابا مابين التأليف والترجمة.. بدأت بدراساته العسكرية ثم كتابه «إعصار من الشرق» عن جنكيز خان ثم ترجم الأعمال الكاملة للشاعر جبران خليل جبران، ثم عاش حالة من الرهبنة فى محراب الفكر والفن وذلك منذ عام ١٩٦٣م عندما بدأ إعداد موسوعته المتفردة «تاريخ الفن – العين تسمع والأذن ترى» منطلقا من مقولة القطب الصوفى الكبير الحلاج عندما خاطب الله قائلا «إنى لأكاد أراك بسمعى وأسمعك ببصرى وتكاد حواسى كلها تغنى كل واحدة عن أختها».

وقد وصلت هذه الموسوعة إلى أكثر من خمسة وعشرين جزءا شملت ثلاثة مجلدات عن الفن المصرى القديم «عمارة ونحتا وتصويرا» ثم مجلدات عن الفن القبطى والسكندرى والفن العراقى القديم والفن الفارسى القديم

وفن عصر النهضة والفن الإغريقى والفن الرومانى.. وفنون الشرق الأقصى «الهند – الصين – اليابان».. ولاتوجد فى كل الكتابات العربية الحديثة موسوعة تضاهى أو توازى موسوعة ثروت عكاشة شمولا وإتقانا على مستوى المادة والإعداد والكشف والرؤى.

وقد استثمر الدكتور عكاشة ما يمتلكه من موسوعية التلقى والاطلاع وتبحره فى المعرفة وحسه الجمالى الرفيع فى تحقيق موسوعية الإنتاج والإنجاز والتى توجها بكتابه العمدة «مذكراتى فى السياسة والثقافة» والذى يقع فى ١٠٥٨ صفحة.

آثار النوبة

وبعد أن مررنا سريعا على بعض العلامات والرؤى فى سيرة ومسيرة ثروت عكاشة المثقف والإنسان.. نتوقف بشىء من التفصيل عند إنجازه الأبهى ومشروعه الأعظم والمتمثل فى إنقاذ آثار النوبة.. فبعد أن قرر جمال عبد الناصر بناء السد العالى لينقل مصر إلى الآفاق الرحبة من التقدم والتنمية.. أكدت الدراسات أن هذا السد الحلم سوف يصنع خلفه بحيرة ضخمة سوف تعمل على إغراق العديد من قرى النوبة والأهم إغراق العديد من الآثار المهمة والمتمثلة فى ١٧ معبدا ومقبرة أشهرها وأهمها معبدا أبو سمبل ومعابد كلابشة ووادى السباع وفيلة وبيت الوالى ومقبرة نبوت – على بعد٢٠كم جنوب السد العالى على الضفة الغربية للنيل تقع معابد كلابشة وقرطاسة وبيت الوالى «نقلت مصر معبد قرطاسة ونقلت ألمانيا معبد كلابشة».

وبـدأ التفكير فى إنقاذ آثـار النوبة منذ عام ١٩٥٦م حيث أنشـئ مركز لتسـجيل آثـار النوبة مزود بالفنيين والأجهـزة الحديثة، إضافة إلى وجود لنش سـريع وبيت عائم وقسـم إدارى كامـل، وبدأت رحلة د. عكاشـة فى إنقاذ آثار النوبة منذ نوفمبر ١٩٥٨م حينما زاره السفير الأمريكـى فى مصر ومعه مدير متحف المتروبوليتان وعرض شـراء معبد أو معبدين من التى ستغرق عند إنشاء السد العالى، فطلب منهما الدكتور عكاشـة التفكير فى كيفية إنقاذ هذا التراث الإنسانى بدلا من شرائه.. وكانت أمريكا قد وقفت موقفا معاديا لمصر فى مشـروع السد العالى، مما دفع الرئيس عبد الناصر إلى تأميم قناة السـويس ثم اللجوء إلى الاتحاد السـوفييتى لتمويل المشـروع.. وبعد زيارة السفير الأمريكى قرر الدكتور عكاشة الانغماس بكليته فى مشروع إنقاذ آثار النوبة. فسافر إلى أقصى جنوب مصر وظل لمدة أسـبوعين فـى مركب صغيرة حيث زار كل آثار النوبة.. كما عاد إلى مشروع تسجيل آثار النوبة الذى قام به وزير التعليم كمال الدين حسـين فى ديسـمبر ١٩٥٤م.. وفى ينايـر ١٩٥٩م التقى الدكتورعكاشـة فى القاهـرة بنائب مدير عام اليونسـكو «رينيه ماهيه» وشـرح له فكرة إنقاذ آثـار النوبة من خلال اليونسـكو وتحمس ماهيه للفكرة وعرضها على السـنيور «فيرونبزى» مدير عام اليونسـكو والذى تحمس هو الآخر وبارك عبد الناصر خطة عكاشـة لإنقاذ آثار النوبة.. وفى ١٦ أبريل ١٩٥٩م طلب د. عكاشة من مدير اليونسكو رسميا تقديم العون الفنى والعلمى والمالى لتحقيق الأعمال التى يتطلبها الإنقاذ.. وفى يونيه ١٩٥٩م ذهب د. عكاشة إلى اليونسكو لعرض القضية أمام المجلس

التنفيذى وحظى بتأييد جماعى لتبدأ الحملة الدولية لإنقاذ آثار النوبة.. وتم الاتفاق على أن توجه اليونسكو نداءً عالميا إلى الدول لكى تشارك مصر فى إنقاذ آثار النوبة..

وفى الأول من أكتوبر ١٩٥٩م انعقد مؤتمر الخبراء الدوليين فى مركز تسجيل الآثار.. وأعلنت مصر خلال هذا المؤتمر استعدادها لمنح بعض المعابد الصغيرة التى سيتم إنقاذها إلى الدول التى تساهم بفاعلية فى إنقاذ آثار النوبة خاصة أبو سمبل «بعد انتهاء عملية الإنقاذ تم إهداء معبد طاقا إلى هولندا ومعبد وندور إلى أمريكا ومعبد دابور إلى إسبانيا ومعبد الليسيه إلى إيطاليا»

وركب أعضاء المؤتمر باخرة نيلية وزاروا كل آثار النوبة على مدى عشرة أيام، ثم وضعوا تقريرا وافيا رفعوه إلى مدير اليونسكو، مع التأكيد على ضرورة توجيه النداء الدولى الذى انطلق من مقر اليونسكو فى باريس يوم ٨ مارس ١٩٦٠م.. وقد وجه الرئيس عبد الناصر خطابا بليغا إلى اليونسكو فى اليوم نفسه جاء فيه: «لئن كانت التزامات التعمير والعمل من أجل الرخاء الإنسانى قد اقتضت تنفيذ مشروع السد العالى على النيل، فإن هذه الالتزامات لم تمنعنا من التفكير فى إنقاذ جزء من أهم ماورثناه من تراثنا.. وما تراثنا إلا جزء من التراث الإنسانى الكبير.. والذى لاشك فيه أن حرصنا على التراث الإنسانى راجع إلى ما يربط الأجيال من صلات ويشد بعضها إلى بعض بخيط خفى لايكاد يرى، ولكنه ينبض فى أعماقنا نبضا حيا متصلا لاينقطع وهذا هو السر فيما حققته الإنسانية من تقدم حفظ كرامتها وكبريائها من الجمود.. إن السد العالى الذى سيقام

فى أسوان بداية عهد جديد من التقدم الاقتصادى يرتقى فيه مستوى المعيشة عند ملايين المصريين.. لكن إقامة السد ستكون بحيرة كبيرة فى النوبة.. الأمر الذى يهدد بإغراق بعض هذه الآثارالعظيمة لأصحاب أعظم حضارة من حضارات التاريخ البشرى، وهكذا نجد أنفسنا أمام اختيارين أحلاهما مر.. التضحية برخاء شعب عريق أو التضحية بكنوز ليست ملكا لبلادنا فحسب ولكنها ملك للإنسانية جميعا».

قام الدكتور عكاشة بتنظيم حملة إعلامية دولية ضخمة، من خلال استضافة عدد كبير من رجال الصحافة والإعلام لزيارة آثار النوبة وذلك فى فبراير ١٩٦٠م.. واستكمالا لهذه الحملة قررت مصر إرسال معرض للآثار المصرية إلى أوروبا تحت عنوان «معرض الفن المصرى فى خمسة آلاف عام» بدأ من بلجيكا فى ٢٥ مارس ١٩٦٠م ثم ذهب إلى هولندا وسويسرا وألمانيا وإنجلترا فى رحلة استمرت ثلاث سنوات.. وبعد نجاح هذا المعرض تم إرسال معرض توت عنخ آمون إلى أمريكا «١٢ ولاية» بعد موافقة عبد الناصر وافتتحته السيدة جاكلين كيندى زوجة الرئيس الأمريكى جون كيندى، كما ذهب إلى اليابان وفرنسا وإنجلترا.. وتولى المكتب الفرنسى «كوين وبلييه» أبحاث إنقاذ آثار النوبة وتحملت اليونسكو ثلث التكاليف وتحملت مصر الباقى.. وتوالت البعثات الكشفية على منطقة النوبة فى صيف ١٩٦٠م بعد أن توقفت منذ ١٩٣٤م.. وفى هذه الأثناء نجحت مصلحة الآثار المصرية فى فك معبدى طاقة ودابور، ونقلت أحجارهما لجزيرة الفنتين فى أسوان.. وجاءت بعثة هندسية برئاسة المهندس الإيطالى الشهير جازولا، حيث

زارت آثار النوبة خلال شهرى أغسطس وسبتمبر ١٩٦٠م وقدمت تقريرا وافيـا.. ثم جاءت بعثة هولندية لدارسـة كيفية إنقاذ معابد فيلة.. وفى هذه الأثناء دعا الدكتور عكاشة عددا كبيرا من الفنانين والكتاب والأدباء المصريين للتجول فى النوبة وتسـجيل انطباعاتهم التى حوتها صفحات كتاب أصدرته وزارة الثقافة فى ذلك الوقت.

وعند مناقشـة كيفية إنقاذ معبدى أبو سمبل ظهرت عدة اقتراحات وتم اختيار الاقتراح العربى السـويدى ويقضى بتقطيع المعبدين إلى أجزاء ورفعهمـا إلى قمة الجبل وإعادة بنائهمـا على ارتفاع ٦٤ مترا من الموقع القديم وتم قبول المشـروع لأنه الأكثر أمانـا والأقل تكلفة.. وعند تقطيع المعبديـن بلـغ وزن كل قطعة ٣٠ طنـا.. حيـث إن وزن المعبد الكبير ٢٥٠٠٠٠ طن.

وقد صدر القرار بنقل معبدى أبو سمبل فى ٢٠ من يونيه ١٩٦١م بعد موافقة الرئيس عبد الناصر.. وتم اختيار البيت الهندسـى السويدى «ف ب ب» للقيام بهذه المهمة وقدرت تكاليف المشروع ٨٧ مليون دولار تدفع مصر منها ٢٠ مليون دولار.

ولجأت أمريكا إلى بعض «التماحيك» السياسية لتعطيل المشروع حيث عرضـت على د. عكاشـة إقامة متحف يضم نمـاذج لمعبدى أبو سمبل، ولكنه أصر على الإنقاذ.. كما طرح الوفد الأمريكى فى اليونسكو الاختيار بـين إنقاذ النوبـة أو النهضة بالتعليم فى إفريقيـا وتم تفنيد هذا الرأى ورفضه، وأمام هذا الموقف الأمريكى راح الدكتور عكاشـة يدعو للمشروع فى كل مـكان من خلال المحاضرات والندوات والمؤتمرات فى الشـرق

والغرب حتى اقتنع الملك جوستاف ملك السويد لإصدار نداء دولى فى أبريل ١٩٦٢م لإنقاذ هذه الآثار وانضم إلى الحملة العديد من المؤيدين مثل الأمير صدر الدين أغاخان. والأميرة مرجريت ولى عهد الدنمارك وعالم الآثار الإيطالى بيرو جاماتشيو.

كما استطاع النجاح المدوى لمعرض توت عنخ آمون مع الكتابات الصحفية الكثيرة للصحفيين الأمريكان الذين زاروا النوبة دفع أمريكا للمساهمة فى المشروع بمبلغ ١٢ مليون دولار.. وقد تقدم الرئيس كيندى إلى الكونجرس طالبا تخصيص عشرة ملايين دولار من حصيلة بيع القمح لمصر لإنقاذ آثار النوبة.. وواصل الدكتورعكاشة رحلاته المكوكية لكثير من دول العالم.

وبدأت عمليات إنقاذ معبدى أبو سمبل بعزل المعبدين وبناء الأنفاق والصندوق المغلف وتركيب الروافع ثم الرفع وبناء السد الواقى لحماية هذه الأعمال بارتفاع ١٣٨ مترا.. واستقر الرأى على أن تتم عمليات الرفع على مرحلتين الأولى فى يناير ١٩٦٣م وتكلفت ٤٢ مليون دولار، وقد شاركت ٥٢ دولة فى عمليات الإنقاذ بمبلغ ٢٠ مليون دولار عن طريق اليونسكو – إضافة إلى ٧ ملايين دولار لإعادة تركيب معبدى أبو سمبل استطاعت اللجنة الشعبية الأمريكية للمحافظة على آثار النوبة أن تجمع منها ٣,٥ مليون دولار.. ويصل ارتفاع معبد أبو سمبل الكبير ١٠٨ أقدام واتساعه ٢٤ قدما وعلى واجهته ٤ تماثيل ارتفاع كل منها ٦٧ قدما.. وشارك فى عمليات الإنقاذ ٢٠٠٠ عامل، أقيمت لهم مستعمرة سكنية كبيرة على مساحة ٥٠٠ فدان.. وأقيم حفل افتتاح معبدى أبو سمبل فى موقعهما الجديد يوم ٢٢ من سبتمبر ١٩٦٨م.

وبعـد كل الجهود التى بذلتها مصـر لإنقاذ آثار النوبة حدث خلال سنوات السبعينيات والثمانينيات إهمال كبير لهذه الآثار، حيث استطاع اللصوص نشـر عدد مـن رءوس التماثيل على هيئة الأسـود والإنسـان بالمناشـير الكهربية فى معبد وادى السـباع.. وحدث الشـىء نفسه فى مقـبرة بنوت وهى مقبرة نادرة منحوتة فى الجبل حيث نشـر اللصوص مناظرها الفريدة التى تصور الجنة والنار والحسـاب والميزان الذى توزن به الحسـنات والسـيئات، وفى النهاية فإن الدرس الأكبر الذى نخرج به من هذا الاسـتعراض السـريع لبعـض ملامح مشـوار الدكتور ثروت عكاشة هو أن البعض يسعى باستماتة للمناصب والكراسى لأنها تصنعهم وتجعل لهم وجودا وقيمة.. وفى المقابل هناك أناس أكبر من أية مناصب أو كراسـى ، خاصـة وأن تلك المناصب هى التى تسـتمد أهميتها بتقلد هؤلاء مسـئولياتها.. ويأتى الدكتور ثروت عكاشة على رأس هذه القائمة مـن الكبار الذين يضيفون لهذه المناصب كمـا أن قيمتهم وقامتهم تزداد بعيدا عن المناصب والكراسى.

❑❑❑